

مصطلح الخطاب (discours) وتأصيله عند عبد الملك مرتاض

أ. أحمد بناني / المركز الجامعي تمنراست

Abeneni11@yahoo.com

ملخص:

[يسعى النص إلى الاقتراب من جهود الناقد عبد الملك مرتاض في التأصيل لبعض المصطلحات النقدية التي شاع استعمالها في نقدنا العربي نتيجة لتأثره بالنقد الغربي ونظرياته، ومنها مصطلح الخطاب الذي يعد لفظا عربيا لكنه مصطلح غربي حديث.

ومحاول مرتاض أن يجد في التراث مصطلحات بديلة أو موازية، في وقت دار جدل حاد حول أهمية بناء مصطلح عربي موحد يكون مرجعا في كل دراسة عربية نقدية.]

==

عبد الملك مرتاض من النقاد الجزائريين الذين يحاولون ترك بصماتهم على النقد العربي المتأثر بوهج الحداثة، تلك البصمة التي تحاول المزاوجة بين التراث والحداثة؛ وهذا ما ميز جل دراساته النقدية التي تغلب عليها مصطلحات حديثة يحاول فيها جمع رؤى التراث ورؤى الحداثة لتستظل بظلالها وهو ما سنتبعه من خلال مصطلح الخطاب. فإلى أي مدى مثلت تجربته مع مصطلح الخطاب الرؤية التأصيلية التي ترمي إلى الجمع بين التراث والحداثة لتؤكد ميزة تمثل شامة في جل دراسات هذا الناقد الجزائري ؟

إن مصطلح الخطاب من المصطلحات التي استلهمها النقاد العرب بعد احتكاكهم بالنقد الحديث، لما وجدوه في هذا المصطلح من استيعاب لمفاهيم عجز مصطلح النص عن استيعابها؛ هذا المصطلح الذي يشير (جان دييوا) (Jean du bios) إلى معناه في معجم اللسانيات مؤكدا أنه يعني الكلام (Parole) ، وهو مصطلح مرادف للملفوظ (énoncé) [1].

كما أن (discours) أصله لاتيني (discursis)، وورد هذا المصطلح في المعجم السيميائي المعقلن جنبا إلى جنب مع مصطلح النص ووفق معنى أحادي موحد للدلالة على أحكام سيميائية غير لسانية، كما عدت السيميائية مصطلح الخطاب جهازا ذا مستويات الواحد فوق الآخر [2].

إن المعاجم النقدية الحداثية تحاول التوسع في مفهوم النص وإسقاطه على مفهوم الخطاب؛ إذ يضع مفهوم الخطاب النص في نطاق أوسع فلا يعزله عن شروط تلفظه وتداوله في مجال حيوي نشيط [3].

ويحاول عبد الملك مرتاض تأصيل مصطلح الخطاب عائداً به إلى ما جاء في التراث العربي حيث يذكر أن الجاحظ عرج على شيء مما يحمل هذا المصطلح، وذلك في نظريته الشعرية حين ذكر بأن "الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير" [4] ، فيقف عند كون الشعر ضرباً من النسج ليؤكد بأن النسج الذي كان يريده الجاحظ هو الخطاب حيث يقول: "أحسب أن هذا المصطلح من أقدم مصطلحات النقد الأدبي في العربية، فلم يقل الشيخ هنا (الديباجة) ولا (التركيب) ولا (الكلام) ... وإنما تعتمد اصطناع النسج، فقد تمثل الكلام بنى، وهذه البنى تنضاف إلى بعضها لتؤلف نسجاً له سطح، فيكون لونا، وله في الإبان ذاته عمق، فيكون مضمونا، فالنسج هنا يشمل كل خصائص الخطاب الخارجية أو السطحية، وذلك هو موضوع النقد الحديث في النص الأدبي" [5] .

تفطن الناقد إلى تقارب ما ذهب إليه الجاحظ مع ما جاءت به الحداثة خاصة الشكلايين الروس في تركيزهم على البناء الفني للقصيدة، وهو ما جعل الناقد يبسط مفهوم الخطاب على النسج الذي يريده الجاحظ. حاول عبد الملك مرتاض في تأصيله التسوية بين الخطاب والنسيج من جهة، كما حاول تجاوز تحديدات (قرياس) في ذات المسألة، على الرغم من أن مثل هذه التفرقة بين الخطاب والنسيج لم تسد مؤلفه (بنية الخطاب الشعري) [6].

إن الجاحظ كان يصب اهتمامه على الخصائص الخارجية أو السطحية بل الشكلية، وهو ما جعل محمد زكي العشماوي يعيب عليه المبالغة بالعناية بالشكل، مشيراً بشكل واضح إلى النص المشكل؛ ففي تتبعه للفصول المختلفة لكتاب الحيوان يخلص إلى ثلاث حقائق أبرزها: "المبالغة في العناية بالشكل، فالشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير، وقد تطرف الجاحظ في هذه النظرة حتى كاد الحكم على الشعر عنده أن يكون حكماً على الجمال الخارجي فيه دون النظر إلى المحتوى أو المضمون الذي كاد ينعدم عنده، فأصبح الشكل بذلك مقياساً للبراعة، وانتهى الجاحظ في هذا بمثل ما انتهى إليه الأصمعي الذي سئل من أشعر الناس؟" فقال: من يأتي إلى

المعنى الخسيس، فيجعله بلفظه كبيراً أو إلى الكبير، فيجعله بلفظه خسيساً " [7].

هذا الوقوف من محمد زكي العشماوي على ما ذهب إليه الجاحظ في نظريته الشعرية هو ما وقف عليه عبد الملك مرتاض، وهو تركيز مبالغ فيه من الجاحظ على الشكل مما جعله يلتقي مع المدرسة الشكلية في هذا المجال إذ أن جوهر المدرسة الشكلية هو العناية بالشكل.

يؤكد عبد الملك مرتاض بأن الخطاب من المصطلحات اللسانية الحديثة التي استعملت في دلالاتها الجديدة عن طريق الترجمة على الرغم من وجود هذا اللفظ في اللغة العربية منذ فجر تاريخها، والخطاب يعادل (discours) في الفرنسية و (discourse) في الإنجليزية و (discurso) في الإسبانية [8].

فمصطلح (الخطاب) مصطلح عربي بيد أنه أضحى لا يعرف إلا بالدلالات الحديثة، إذ بسط على هذا المصطلح ما جاءت به الدراسات الحديثة، فكانت هي المرجع في تفسيره، فلم يلبث هذا المصطلح " أو هذا اللفظ العربي الأصيل أن استحال إلى مصطلح تبناه النقد العربي المعاصر فأمسى من أكثر مصطلحاته تردداً على ألسنة المحاضرين، وأقلام النقاد حين التعرض لمعالجة نص من النصوص الأدبية " [9]، وذلك لما احتك العرب بالدراسات الحديثة التي استقر فيها مصطلح الخطاب، وتبناه النقد العربي المعاصر، فعبد الملك مرتاض يعد من النقاد الذين تبناوا هذا المصطلح بمفهومه الحديث.

يؤكد عبد الملك مرتاض بأن مصطلح "خطاب" مصطلح عريق من النصوص العربية القديمة، تبناه الألسنيون المعاصرون [10]، فيعود بمصطلح (الخطاب) إلى التراث العربي ليؤكد أن النحاة العرب حاولوا "اصطناع بعض هذا المصطلح في مفاهيم نحويين في ضمير المخاطب (أنت) وفي إعراب كاف الخطاب مثل: الكاف من (ذلك) التي لا محل لها لديهم من الإعراب، ويدل استعمال النحاة العرب على أنهم كانوا يحومون حول هذا المصطلح بمفهومه الحديث دون التمكن من الوقوع عليه لانعدام حاجتهم الاستعمالية في زمنهم إلى ذلك، واستعمالهم يدل على كل حال على أنهم كانوا يطلقون الخطاب والمخاطب على المتلقي المشافه " [11].

ويبحر عبد الملك مرتاض في التراث ويستنتج أن النحاة هم الآخرون تعرضوا لهذا المصطلح بيد أنهم لم يتمكنوا من الوقوف عليه كما جاءت به

الحداثة، خاصة إذا علمنا بأن مفهوم الخطاب تعود نشأته في الدراسات المعاصرة إلى "فردينان دي سوسير" صاحب كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" [12] حيث ميز بدقة بين اللغة والكلام [13]، فما حد اللغة والكلام؟ فاللغة عند دي سوسير جزء جوهري من اللسان، وهي في الوقت ذاته نتاج اجتماعي للملكة اللسان، وأن الكلام هو نتاج فردي كامل يصدر عن وعي وإرادة. وانطلاقاً من هذا التعريف قارب الناقد عبد الملك مرتاض آراء النحاة بما جاء في مصطلح الخطاب بطابعه الحداثي، وأكد ورود هذا المصطلح في القرآن الكريم مرات عديدة.

إن مصطلح الخطاب ظل معناه الحداثي متداولاً عند عبد الملك مرتاض، فقد تأثر بما ذهب إليه (غريماس) من اشتقاق معنى جديد منه " وهو ما يمكن أن ترجمته بـ (الخطبية) (discourisation - discouvisation) ... والخطبية لديه عبارة عن جملة من الإجراءات المتعلقة بوضع الخطاب موضع الانجاز أو في حالة الانجاز و"الخطبية" تختلف عن " النصنصة"، وهذا المصطلح مثله مثل الخطبية من اقتراحنا (textualisatio textualisation) الذي هو مجموعة من الإجراءات التي ترمي إلى تشكيل مضمون خطابي يكون طليعة لظهور الخطاب [14].

وهكذا يتفق الناقد مع ما جاء به (غريماس)، وما أضافه لمفهوم الخطاب، وهو ما يؤكد تأثر الناقد عبد الملك مرتاض الكبير بما جاءت به الدراسات الحداثية، فهو يذهب إلى أن (النصنصة) تعني مرحلة انجاز النص، ومعالجة مخاضه على حين أن الخطاب هو النص الكامل المتكامل المنجز أي النص المهيأ للطبع أو القراءة على أن كثيراً من المنظرين اللسانياتيين يذهبون إلى عد النص مرادفاً للخطاب ... ونعرف نحن هذا المصطلح بأنه خصوصية النص ضمن الجنس الأدبي [15].

هناك تطابق كبير بين ما جاء في تعريف عبد الملك مرتاض للنصنصة) وما جاء به (غريماس) ليشير إلى تداخل مفهوم النص مع مفهوم الخطاب إلى حد أن كثيراً من المنظرين اللسانياتيين جعلوا النص مرادفاً للخطاب، ليفرد بعد ذلك هذا المصطلح بتعريف يجعله (خصوصية النص ضمن الجنس الأدبي).

يرد هذا المصطلح عند (رولان بارت)، إذ تنتهي به الدراسة إلى أن "الجملة في اللسانيات هي الوحدة الأخيرة في اللغة، وهذا يعني أن الخطاب لا يوجد إلا في الجملة لأنها القسم الأصغر الذي يمثل مجدارة كمال الخطاب بأسره،

فالخطاب جملة كبيرة ومنها يصير السرد جملة كبيرة لأن لغة السرد عامة لا تعدو كونها أحد الاصطلاحات التعبيرية التي وهبت للسانيات الخطاب" [16]. هذا اتفاق مع دعوة عبد الملك مرتاض إلى اعتبار الخطاب نسجا يتبدى في خصائصه الخارجية، والجملة مظهر بل خطاب يتميز بخصائص، فهي عناية بالشكل أيضا. إلا أن (بارث) وسع مفهوم الخطاب حتى صار متعة وعشقا، وهو عند حديثه عن النص يرى جماع اللغة بين الذات الراغبة، وبين النص، وعندما يكون الخطاب النظري تجسيدا لدوافع الذات التي تنتج كل خطاب يكون إذن خطابا للمتعة [17]، وهي خصوصية من خصوصيات الخطاب عند رولان بارث .

يذهب (رولان بارث) إلى أن المتعة و اللذة هي طاقة فاعلة من طاقات الخطاب، وقد يكون الخطاب هو تلك اللغة المنطوية تحت الأسلوب المكتفية بذاتها لأن الأسلوب صوت مزخرف، وتحول أعمى، وعنيد ينطلق من لغة تحتية [18].

فهو بهذه الإضافة يخرج عن الشكل إذ لم يخرج الناقد عبد الملك مرتاض في تصويره لمصطلح الخطاب عن كونه خصوصية الخطاب السطحية إلا أن (بارث) تجاوز الشكل ليسبر أغوار الذات المنتجة، فقد نفذ إلى اللغة التحتية معتبرا أن الخطاب لغة منطوية تحت الأسلوب.

يشير (تزفيطان تودوروف) إلى ما يرمي إليه الناقد عبد الملك مرتاض في تصويره لمصطلح الخطاب إلا أن الخطاب عند (تودوروف) نوعان، خطاب نقدي، وخطاب أدبي، ويتداخل تعريفه للخطاب الأدبي مع ما جاء به مرتاض، ففي تعريفه للخطاب الأدبي والشعري خصوصا من منظور التواصلية يقول: "إن العمل الشعري... ليس ممكنا إلا عبر فصل الخطاب الذي يعبر العمل الفني به عن نفسه عن كلية اللغة، إلا أن هذا الفصل لا يتحقق إلا إذا كان للخطاب ذاته حركته الخاصة المستقلة، وبالتالي زمنه كما هو حال أجسام العالم؛ هكذا ينفصل الخطاب عن كل ما عداه، ويخضع للانتظام الداخلي، ومن وجهة النظر الخارجية يتحرك الخطاب بحرية، وبطريقة مستقلة، وفي داخله يكون منظما، وخاضعا للانتظام [19].

فهنا إشارة إلى خصوصية الخطاب الخارجية، وهو ما عبر عنه الجاحظ بالنسج، فهو خضوع للانتظام الداخلي، واستقلال يجعله ينفصل بالخطاب عما

عداه، فهذا دليل آخر على الاعتراف الحداثي لعبد الملك مرتاض من الدراسات النقدية المعاصرة.

كما يتداخل تعريف عبد الملك مرتاض لمصطلح (الخطاب) مع ما ورد في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، فقد عرف هذا المصطلح في هذا المعجم بأنه "مجموع خصوصي لتعابير تتحدد بوظائفها الاجتماعية، ومشروعها الإيديولوجي... ومحدد (بنفيست) الخطاب في استيعاب اللغة عند الإنسان المتكلم... ويمتلك الخطاب أبعادا شاعرية تميزه عن الخطابات المباشرة [20].

يلتقي رأي عبد الملك مرتاض مع هذا التعريف في ذكر الخصوصية التي ظل يؤكد عليها في الخطاب خاصة امتلاك الخطاب لأبعاد شاعرية تميزه عن بقية الخطابات المباشرة، وهي خصوصية تفرده، وتميزه عما سواه، كما يذهب (إميل بنفيست) في تعريفه للخطاب مذهباً كان له أثر في الدراسات الأدبية التي تقوم على دعائم لسانية وأسلوبية، فهو يرى أن الجملة تخضع إلى مجموعة من الحدود إذ هي أصغر وحدة في الخطاب، ومع الجملة نترك مجال اللسانيات كنظام للعلامات على اعتبار أن الجملة تتضمن علامات، وليست علامة واحدة، وتدخل إلى مجال آخر حيث اللسان أداة للتواصل نعبّر عنه بواسطة الخطاب" [21].

فهذه إشارة إلى تجلي اللسان في عملية التواصل مما جعل (بنفيست) يلحق الجملة بالخطاب، وهو التقاء مع (بارث) الذي اعتبر الخطاب موجوداً في الجملة لأنها الجزء الأصغر الذي يمثل كمال الخطاب، وهو تركيز على الخاصية الخارجية، وتركيز على الشكل، وهو ما وقف عليه عبد الملك مرتاض عند تركيزه على أن النسج تعبير عن الخصوصية السطحية للخطاب . يتضح مما سبق أن الناقد استلهم تعريفه للخطاب من الدراسات الحداثية، فحاول العودة بالمصطلح إلى التراث العربي، وهو ما جعله يكتشف شكلاً الجاحظ المبكرة، فبسط التصور الحداثي لهذا المصطلح على ما جاء به الجاحظ، فأثرى تصور الجاحظ لهذا المصطلح وأعطاه بعداً حداثياً يجعل الجاحظ ناقداً لحداثيته سابقاً زمانه.

الإحالات

- 1- Jean du bios autres, Dictionnaire de linguistique (Discours) p: 57.

- 2- A.J. Greimas et j. courtes, semiotique Dictionnaire raisonné, P: 102-103.
- 3- أحمد بو حسن، المصطلح ونقد النقد العربي، مجلة الشعر العربي المعاصر، بيروت. ك2 شباط 1989 ص 88.
- 4- الحيوان، ابو عثمان الجاحظ،، دار الكتب، تحقيق عبد السلام هارون بيروت، ج3، 1969.ص.131-132
- 5- بنية الخطاب الشعري، عبد الملك مرتاض، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1986.ص.9.
- 6- عبد الملك مرتاض، نظرية - نص - أدب ثلاثة مفاهيم نقدية، بين التراث والحداثة - النادي الأدبي الثقافي - جدّة (السعودية) ج1، السنة 1992 ص 273.
- 7- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي العشماوي، ط1، دار الشروق القاهرة، 1994.ص.252
- 8- تحليل الخطاب السردي- معالجة سيميائية تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق، عبد الملك مرتاض، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995. 261
- 9- المرجع نفسه. ص 261
- 10- المرجع نفسه. ص 262
- 11- المرجع نفسه. ص 261
- Cours de linguistique générale paris 1980.P19-12
- 13- المرجع نفسه . ص 19
- 14- تحليل الخطاب السردي- معالجة سيميائية تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق، عبد الملك مرتاض، .مرجع سابق . ص 261
- 15- المرجع نفسه . ص 262
- 16- النقد البنيوي للحكاية، رولان بارت، ترجمة أنطوان أبو زيد، بيروت، باريس، 1988.ص 95
- 17- لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا والحسين سجا، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.ص 07
- 18- الدرجة الصفر للكتابة، رولان بارت، ترجمة محمد برادة، الرباط، 1985.ص 35
- 19- نقد النقد تزفيتان تودوروف، ترجمة سامي سويدان، بيروت، 1986.ص 02
- 20- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط1، 1985.ص 83
- 21- problèmes de linguistique, E. Benveniste, Ed gallimaird, paris 1966.P129-130